

محاضرات مقياس الأدب الشعبي العربي

السنة الثانية ماستر

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 07: الشعر الشعبي العربي في العصر العباسي وما بعده

1/ توطئة:

إن ظروف حياة العرب في العصر العباسي وما بعده، قد شهدت نقلة نوعية نقلت العرب من طور الحياة البدوية إلى الحياة المدنية، وحياة الحضارة والترف والتأنق في الملبس والمأكل والمسكن، كما أن انفتاح العرب على غيرهم من الأمم أدى إلى امتزاج الثقافات والآداب وتبادل العلوم والفنون بين العرب وغيرهم من الأمم، فنشطت حركة التأليف والترجمة، وأقبل العجم على تعلم علوم العربية وعلوم الدين وانفتح العرب بالمقابل على الثقافة اليونانية والفارسية والهندية وأخذوا عنها وترجموها، كما اتسعت رقعة البلاد وشاع اللحن على ألسنة الناس وانتشر بينهم، كما دفعت هذه الظروف الحضارية الجديدة بالأدباء والشعراء إلى الخروج عن التقاليد القديمة، فظهرت عند كثير منهم نزعات التجديد والتقنن في الشعر والأدب والفنون، فظهرت المسمطات والمسمطات في بغداد وما جاورها، وظهرت في بلاد الأندلس التي كانت الحياة فيها أشبه أو أكثر حركية وازدهارا من بغداد عاصمة الخلافة في حد ذاتها، فظهرت الموشحات بادئ الأمر ثم ظهرت الأزجال وتطورت فنون الطرب والموسيقى هناك، وكانت نظرة الخاصة من الخلفاء وأهل اللغة اتجاه شيوع اللحن واتجاه هذه الفنون المستحدثة مستهجنة مستكرة أول الأمر، قبل أن تنهض الأنفس والعقول لتقبل هذه الفنون الملحونة أو العامية.

2/ النظرة العامة للحن والفنون الشعبية وبداية الاهتمام بها

إن نظرة الخاصة من الخلفاء وعلماء اللغة لشيوع اللحن على ألسنة العامة وظهور العاميات كانت صارمة، وهذا ما تشير إليه كثير من المؤلفات ويشير أحد الباحثين إلى هذه القضية قائلاً «ونستطيع أن نستخلص من المصادر أن الخاصة من المثقفين كانوا ينبذون اللغة العامية،

وينفرون منها، فيحدثنا الأصفهاني أن الرشيد كان إذا ركب الزلاّلات وسمع غناء الملاحين أعجب بها، ولكنه كان يغضب من فساد كلام الملاحين ولحنهم، وذات يوم قال -وقد اشتد غضبه من اللحن- «قولوا لمن معنا من الشعراء يعلمون لهؤلاء شعرا يغنون فيه»¹

هذا ما جعل الرواة والمهّتمين بالأدب يستتكفون عن نقل وتدوين كثير من هذه الفنون كالמושحات بادئ الأمر بحجة أن أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب كما يقول ابن بسام في كتابه الذخيرة أو لأنها كانت خاصة بالغناء والتلحين أكثر من الإنشاد وهذا ما جعل ابن خلدون يقول: «ولا عروض لها إلا التلحين» أو لأن «العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المخلدة» كما يقول المراكشي «وإذا كان موقفهم كذلك من الموشحات، فمن الطبيعي أن يكون موقفهم أشد وأعنف من الفنون الأخرى، لأنها تتضمن العيوب والنقائص التي أخذها العلماء على الموشحات، بل فاقت عليها في ذلك، فإذا كان العلماء أخذوا على الموشحات اشتغال خرجاتها على مفردات وتراكيب عامية، فإن العامية تفرض نفسها على الزجل كله من مطلعه إلى خرجته، وهي كذلك في «الكان وكان» و«الموالي» و«الحماق»، وإذا كان أكثر الموشحات على غير أعاريض أشعار العرب، فإن جميع الفنون السبعة هكذا على غير أعاريض العرب»² إن لموقف العلماء المتشدد من الموشحات وعدم قبولهم تدوينها في كتبهم ومؤلفاتهم الأثر البالغ في تأخر الاهتمام بها وفي ضياع كثير منها ولولا إعجاب النقاد والأدباء بموشحات ابن سناء الملك وإقبالهم على تدوينها، ولولا المقدمة العلمية التي قدم بها ابن سناء الملك لكتابه "دار الطراز في صناعة الموشحات" التي أكسبت الكتاب طابعا علميا؛ مما كان له أثره البالغ على موقف العلماء المتشدد من الموشحات، ولولا هذا لصاعت موشحات ابن سناء الملك نفسها كما ضاعت موشحات من قبله «والذي نرشحه أن ابن سناء الملك بتأليفه "دار الطراز" وتدوينه

¹ مجدي محمد شمس الدين: فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ج1، ط1،

2004م، ص 40-41.

² المرجع نفسه، ص 31-32.

الموشحات في هذا الكتاب قد هيا العقل لتقبل الموشحات وتدوينها في الكتب والمؤلفات بعد أن كان العلماء يرفضون إيراد شيء منها،...»¹

ولكن هذه النظرة لم تستمر طويلا فقد بدا إعجاب العامة بهذه الفنون جلياً، وهذا ما دفع بالمشتغلين بالأدب بجمعها ودراستها، لذلك وجدنا "صفي الدين الحلي" يفرّد لها كتاباً سماه "العاطل الحالي والمرخص الغالي" والذي قال فيه عن هذه الفنون: «فهي الفنون التي إعرابها لحن، وفصاحتها لحن، وقوة لفظها وهن، حلال الإعراب بها حرام، وصحة اللفظ بها سقام، يتجدد حسنهما كلما ازدادت خلاعة، وتضعف صنعتها إذا أودعت من النحو صناعة، فهي السهل الممتنع، والأدنى المرتفع. طالما أعيت بها العوام الخواص، وأصبح سهلها على البلغاء يعتاص، فإن كلف البليغ منها فنّاً تراه يريغه، ولا يتجرعه ولا يكاد يسيغه»²

إن الحليّ يقر ببلاغة هذه الفنون ويقول بأنها تزداد حسناً كلما زادت خلاعة فهي تقوى باللحن وتضعف إذا أعربت أو أودعت من النحو صناعة، أي إن إعرابها وإخضاعها لقواعد النحو يضعفها ويشينها، ويقضي على جوانب الحسن والجمال فيها، وهي الفنون السهلة عند العوام المستصعبة لدى الخواص، ويظهر الإعجاب بهذه الفنون والاهتمام بها عند كثير من الأدباء بعد الحليّ. وهذا ما يجعل واحداً كابن خلدون يشير إلى بلاغة هذه الفنون الشعرية وجمالها وضرورة الاهتمام بها حين قال متكلماً عن هؤلاء الذين أبدعوا شعراً شعبياً في زمانه «ول هؤلاء الأعراب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان، يستتكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمجّ ضمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة. إنما البلاغة

¹ مجدي محمد شمس الدين: فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي، ص 31.

² صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2،

مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه»¹ وهكذا فقد أتى ابن خلدون بمفهوم ناضج كل النضج حول الشعر الشعبي سبق به أحوال عصره، مفاده أن بلاغة الشعر وفنيته لا تحصل بالفصيح من الكلام فحسب فقد تتحقق بغيره من الكلام الملحون شريطة مراعاة أحوال الناس أو أذواقهم فالبلاغة عنده هي مراعاة مقتضى الحال فما دامت الأشعار الشعبية تراعي مقتضى الحال فهي نصوص بليغة وفنية.

ويتطرق "صفي الدين الحلي" الشاعر المشهور في كتابه "العاطل الحالي والمرخص الغالي" إلى تعداد هذه الفنون عند المشاركة والمغاربة في ذلك العصر، وبذلك يكون كتابه من أوائل المؤلفات التي تناولت الأدب الشعبي أو الشعر الشعبي بصفة علمية فقال في كتابه «ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون لا اختلاف في عددها بين أهل البلاد، وإنما الاختلاف بين المشاركة والمغاربة في فنين منهما، وسيأتي ذكرهما.

والسبعة المذكورة هي عند أهل المغرب ومصر والشام، الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليا والكان وكان والحقاق، وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون خمسة منها ويبدلون الزجل والحقاق بالحجازي والقوما. وهما فنان اخترعهما البغاددة للغناء بهما في سحر شهر رمضان خاصة في عصر الخلفاء الراشدين من بني العباس»²

3/ فنون الشعر الشعبي العربي في العصر العباسي وما بعده

ليس جميع الدارسين على اتفاق حول عدد هذه الفنون وحول تسمياتها فبعضهم يدرج بعضا من هذه الفنون تحت مظلة الشعر الفصيح، وآخرون يلحقون بعضا منها بالفنون غير المعربة (الملحونة)، لكننا وجدنا شبه إجماع واتفاق عند بعضهم حول هذه الفنون التي سوف نذكرها وهي التي ذكرها "صفي الدين الحلي" في كتابه وأثبتها "حسين نصار" كذلك في كتابه "الشعر الشعبي العربي" كما تطرق إليها كذلك "مرسي الصباغ" في كتابه "قراءة جديدة في الشعر

¹ عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، تحقيق وشرح وفهرسة، سعيد محمود عقيل، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ط1،

2013م، ص 488-489.

² صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص 07.

الشعبي العربي" وزاد عليها فن «الحماق والعتابا والواو» الذين أهملهم حسين نصار وقد اعتبر "مرسي الصباغ" الموشح والدوبيت والمسمط من فنون الشعر الشعبي التي أدرجها في كتابه. ورغم أن "صفي الدين الحلي" قد ذكر فن "الحماق" بالمغرب العربي وقال بأنه شبيه أو بديل الحجازي والقوما بالمشرق فإنه لم يتطرق إليه بالشرح والتمثيل مثلما فعل مع باقي الفنون الأخرى ونجده في صدد الحديث عن هذه الفنون والتمييز بين المعربة منها والملحونة يقول «وعند جميع المحققين هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها وهي الشعر والموشح والدوبيت،... ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهي الزجل والكان وكان والقوما، ومنها واحد هو البرزخ بينهما، يحتل اللحن والإعراب وإنما اللحن فيه أحسن وأليق، وهو المواليا»¹ لذلك وجدناه يلحق فن المواليا بهذه الفنون الملحونة غير المعربة، وذلك ما فعله كل من حسين نصار ومرسي الصباغ في كتابيهما.

أ- الزجل: وأشهر الفنون العامية اللغة الزجل، وقد اتفق الدارسون على أن مخترعه أهل الأندلس، وقيل سموه بالزجل لأنه لا يلتذ به، ويفهم تنغيمه، حتى يغنى به ويصوت، والزجل في اللغة الصوت. وانتشر هذا الاسم بين الناس، بالرغم من أن أهل بغداد سمو هذا الفن بالحجازي، ويمنح الزجل ناضمه كثيرا من الحرية، ولا يقيد بصورة محددة، فأوزانه متجددة، وقوافيه متعددة، بخلاف بقية فنون الشعر الشعبي.

وقد صنّفه دارسوه من حيث اللغة إلى نوعين: النوع الطبيعي الذي يستخدم اللغة العامية استخداما مطلقا، وهو النوع المعتاد. والنوع الذي يجمع بين اللغة العربية الفصيحة واللغة الدارجة، وقد احتقره أهل الزجل وسموه المزتم، ومعناه المستلحق لا الأصيل، كما سمي أيضا المزبلح.

ونظرت جماعة أخرى إلى الموضوعات التي يتناولها الزجل وصنفته وفقا لها: فما عالج النسيب والغزل والخمر والزهر وما اتصل بها سمي زجلا. وما عالج الخلاعة والهزل سمي بليقا. وما

¹ صفي الدين الحلي: العاقل الحالي والمرخص الغالي، ص 03.

كان في الهجاء سمي قَزْفِيًّا. وما كان في المواعظ والحكمة سمي مُكْفَرًا، يريدون أنه كفارة عن الذنوب.¹

ومن أمثلة الزجل ما قاله مدغمليس

لاح الضيا والنجوم حيارى فقم بن نزرع الكسل
شربت ممزوجا من قراعا أحلى هي عندي من العسل
يا من يلمني كما تقلد قلداك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب مولد وأنه يفد العقول
لأرض الحجاز يكون لك أرشد اش ما ساقك لذى الفضول²
ومنه أيضا قول الشاعر:

لي دهر يعشق جفونك وسين وانت لا شفقة لا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو وأنت تغزو قلوب العاشقين³

ب- المواليا أو (الموال)

قيل أن فن المواليا ابتكره أهل واسط، تلك المدينة التي بناها الحجاج الثقفي بين الكوفة والبصرة من العراق.

وكان ابتكارهم إياه أن نظموا بيتين على وزن البسيط، وجعلوا الأَشْطَار الأربعة على قافية واحدة، واستخدموا فيه اللغة الفصحى. وسموا المقطوعة منه صوتا، مما يشير إلى الصلة

¹ حين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 113، 114.

² مرسى الصباغ: قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص 71.

³ نفس المرجع، ص 72.

المؤكدّة بين هذا الفن والغناء. وقد تناولوا في هذه الأصوات الغزل، والمدح، والصنائع، ولكنهم حافظوا على البحر والقافية، وعدد الأبيات.

ثم انتشر فن المواليا بين عمال أهل واسط، واتخذوا منه ما اتخذه قدماء العرب من الرجز، شعر العمل والكد، فتغنّى به المشرفون على عمارة بساتينهم، والفعلة، والبناءون، والمزارعون، وقيل أنهم كانوا يقولون في ختام كل صوت منها: يا مواليا، إشارة إلى ساداتهم، فتغلب عليه الاسم الذي عرف به.

وتلقف أهل بغداد هذا الفن، وأجروا فيه بعض التغييرات الهامة التي حددت مصيره، فقد استخدموا فيه لغتهم العامية، ولطفوه ورقّقوه، وتوسعوا في دائرة موضوعاته، فنظموا فيه الجد والهزل، والرقيق والجزل.¹

وتروي بعض المصادر كما ذكر "حسين نصار" و"مرسي الصباغ" نقلا عن كتاب المزهر للسيوطي في رواية «أنه عندما أطاح هارون الرشيد بالبرامكة منع الناس من ذكرهم ولكن جارية من جواريتهم كان ولاؤها أقوى من خطر الخليفة فراحت تطوف بقصورهم المهدمة وتتمم بأبيات من الشعر المنغم البسيط الموزون تختتم كل مقطع منها صائحة (واموالياه) مشيرة بذلك إلى أسيادها الذين نُكبوا فقالت:

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس وامواليا
أين الذين حموها بالقنا والترس وامواليا
قالت تراهم رمم تحت الأراضي الدرس وامواليا
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس وامواليا»²

ثم نجد "مرسي الصباغ" يذكر مختلف الآراء حول نشأة هذا الفن وسبب تسميته فهو يرى أنه فن شعري أريد به الخروج إلى السهولة واليسر وفق ما يتناسب مع الطوابع الشعبية في بغداد وما جاورها فيما يشبه ما حدث للموشحات بأقصى المغرب بالأندلس، فينقل كلاما لصفي الدين

¹ حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 117-118.

² مرسي الصباغ: قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص 61.

الحلي وآخر لابن خلدون من مقدمته وغيرها من الآراء التي تبحث في أصل هذا الفن وهي آراء لا تهمنا هنا بقدر ما يهمنا (المواليا) كفن شعري شعبي وعلاقته بالغناء ومدى إعجاب الناس به وإقبالهم عليه نظما وترديدا وغناء.

«ويمتاز فن المواليا عن الزجل باستعمال الإمالة، والتزامها في القوافي خاصة، وتكرير اللفظة الخفيفة في القوافي، والتزام الحرف السابق على الروي ليكون ردفا له أحيانا...»¹

ومن أمثلة الموال ما ذكره "مرسي الصباغ" في كتابه:

يا واخذ القرد اوعى يخدعك ماله

تحتار في طبعه وتتغذب بأفعاله

حبل الوداد ان وصلته يقطع أحباله

تقضي عمرك حليف الفكر والأحزان

ويذهب المال ويبقى القرد على حاله²

ج- الكان وكان

«لم يختلف المؤرخون في هذا الفن، واتفقوا على أن أهل بغداد هم الذين ابتكروه، وقد نظموا فيه الحكايات والخرافات، ولذلك سمي الكان وكان، ولكنه شأن بقية تلك الفنون انتشر وأحبه مستمعوه، فنظمه ناظموه في موضوعات أخرى. فقد صرح الكتاب بأن الوعاظ، وخاصة ابن الجوزي وابن الكوفي، أمسكوا بهذا الفن المحبوب، ونظموا فيه كثيرا من مواعظهم وزهدياتهم وأمثالهم، وأظن أن الصلة واضحة بين المواعظ وهذا الفن، لأن الوعاظ كانوا يعتمدون في أقوالهم على قصص الأنبياء والصالحين والأولياء وأخبار الماضين، وكل ذلك خاص بهذا الفن»³

¹ حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 118.

² مرسى الصباغ: قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص 66-67.

³ حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 121.

ونمثل للكان وكان بقول الشاعر:

«يا قاسي القلب مالك لا تسمع وما عندك خبر

من حرارة وعظي قد لانت الأحجار

أفريت مالك وحالك في كل ما لا ينفعك

ليتك عن ذي الحالة تقلع عن الإصرار

تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشغل

فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

ويحك تنبه فتى وافهم مقالي واستمع

ففي المجالس محاسن تحجب عن الأبصار

يحصي دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه

وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار

تلوت قلبي ونصحي لمن تدبر واستمع

ما في النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار»¹

د - القوما

«بداية يقول ابن الأثير (بلغني أن قوما ببغداد من رعا ع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بحر الشعر المنقولة عن العرب وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة وإن لم تكن الألفاظ التي صيغت به)

¹ حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 122.

من هذه البداية يتضح لنا أن فن القوما هو لون من ألوان الشعر الشعبي الذي نشأ في العراق بغرض استخدامه في تسخير الناس في شهر رمضان ولذلك سمي بالقوما وهذا أيضا ربما يكون اشتقاق اسمه من قول المغنين للتسخير في آخر كل بيت (قوما للسحور)

كما يتضح لنا أيضا من هذه البداية أن له أصولاً فنية سار عليها وهذا ما أشار إليه المؤرخون والأدباء من استخدامه للغة متحللة من الفصحى وفي نفس الوقت ليست بعامية أي أنها لغة فصحية مبسطة بالإضافة إلى أوزانه وأشكاله.¹

يشير كل من "صفي الدين الحلي" و"حسين نصار" إلى أن فن القوما هو ما أطلق عليه في مصر والشام والمغرب اسم الحماق دون معرفة واضحة بسبب التسمية.

أما أشكاله:

أ- فمنها ما اتحد فيه الوزن... وتتكون المقطوعة فيه من أربعة أشطر متحدة الوزن تتفق ثلاثة منها في القافية وتترك الرابعة حرة وقد تأخذ الشطرة الرابعة صفة اللازمة التي تتكرر، ومثاله قول الشهاب الحجازي:

يا طالبي الغفران

قوما إلى الرحمن

لتنظر العين منكم

عينان نضاحتان

ب- ومنها ما اتحدت فيه القافية دون الوزن وتتكون مقطوعة من ثلاثة أشطر متدرجة في الطول بحيث يكون الشطر الثاني أطول من الأول والثالث أطول من الثاني ومثاله

صرتم حكية

¹ مرسى الصباغ: قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص 75.

شرحها ينقل إلي

انتم هتكتم عرضكم

فأنا اش علي

أنا اش علي

صوتكم ما هو اللي

موروا عملوا اش

ردتم خرجتم من يدي¹

«وكان المسحرون يمدحون رب البيت في القوما، ويدعون له، ويتقاضونه أن ينعم عليهم مقابل تنبيهه. ثم تطور الأمر بالقوما عندما خرج عن أيدي المسحرين، فنظمه ناظمون في الغزل، ووصف الأزهار والبساتين وما إليها، والعتاب، وغير ذلك من الأغراض الشعرية»² التي تتصل بواقع حياة الناس اليومية المعاشة.

¹ مرسى الصباغ: قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص 75-76-77.

² حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 124.